عنوان البرنامج: تفكيك خطاب التطرف
الوحدة الثالثة: حلم الصفاء
الدرس الثاني: حلم الصفاء والتأويل
اسم المحاضر: الدكتور أحمد عبادي

حلم الصفاء والتأويل

تأويل هذه المقولة الكبيرة، أي «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[1]، التي صحّت عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا التأويل حين لم يكن آخذا بعين الاعتبار لكل هذه المقوّمات، ولكل هذه المستلزمات وهذه المقتضيات، تم السقوط في ما بِتْنا نرى ثماره الآن.

وهذا هو ما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأبي هو وأمي، قد قاله حين الحديث الذي صحّ عنه صلى الله عليه وسلم، من رواية أمنا عائشة رضي الله عنها، ورواه من ضمن الرواة الكبار، سيدنا سفيان بن عيينة رضي الله عنه، وهو حديث مسلسل، والذي فيه: «أن الله إذا قضى الأمر في السماء، ضَربت الملائكة خُضْعانا بأجنحتها، فيُسْمَع لها كصوت السِّلسلة على صَفْوان، ثم يقولون: ماذا قال ربكم، فيقولون للذي قال: هو الحقّ، فيسترقها الشيطان الذي يقعد مقعدا للسمع، فربما ألقاها للذي بعده . ثم قلَب سيدنا سفيان كفّه، وبدّد بين أصابعه هكذا . ثم قال: فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها إلى صاحبه فأحرقه، وربما لم يدركه حتى يلقيها إلى صاحبه فليقيها إلى الذي بعده، ثم يلقيها إلى أُذْنِ الكاهن أو الساحر كما تقَرُ الدّجاجة بمنقارها، فيُحَدّث بها بعد أن يكون قد خلطها هذا الشيطان بمائة كذبة، فيقول الناس: ألم يحدثكم يوم كذا بكذا وكذا فكان كالذي قال»[2]،

1. جزء من حديث أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم: 2641.
2. أخرج البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿**إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ**﴾ [من سورة الحجر]، حديث رقم:4701. قوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ . وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ . فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ . وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الأَرْضِ . فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَكُونُ كَذَا

فيكون ذلك ذريعة لتصديقه، فتشيع الفتنة في الناس، وهو الذي يبرر هذه العملية التي فعلا فيها تعريض للنفس للقتل وللحرق وللموت، من أجل المفعول الكبير الذي يترتّب على ذلك، وهو فتنة الناس وربطهم بهذه الأبعاد التي لا يتيسّر ضبطها، فتشيع الفتنة في الناس.

هذا الميكانيزم نفسه، وهذه الآلية ذاتها، هي التي يتم استعمالها، حين يتم رصد أمر من أمور البُعد والانحراف والتجانُف عن هذه الأصول، وعمّا كان عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لكن عوض أنْ يُعالجَ هذا الانحراف بالوعظ وبالإرشاد، وبالتأطير المستبصر بالمقاصد وبالمسارات وبمقومات الصراط المستقيم، التي تركنا عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كالمحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

حين يتم التجانُف عن هذه الآلية، أي ردّ الناس إلى الصواب، من خلال هذه الممارسات التي استقرّت في الأمة وشُحِذَت وبُرِدَت، حتى كان لها المفعول الانسيابي المبارك الذي كان لها، حين يكون ذلكم بالعنف وبالتسفيه للسلف رضوان الله عليهم، فإن ذلكم يُجَلّي طائفة كما لو كانت هي الممتلكة للحق، ويبرز الآخرين كما لو كانوا سفهاء، وحاشاهم.

فإذن هذا المقترب، وهذه الممارسة، أمران خطيران، ولكن للأسف تم استعمالهما في كل الحقب التي مرّت، من كل المداخل، وبسبب كل الأمور التي تم الإلماع إليها، للوصول إلى هذا التجلي، أي ادّعاء الصفاء من لدن الناشئة، وادّعاء في انفكاك عن كل المقومات العلمية، وعن كل الاتصال بسلف الأمة الصالح عبر سلسلات الإسناد المتصل، عبر مختلف أجيال العلماء، الذين يجيزون من يرونه أهلا لحمل هذه الأمانة، أو لا يجيزون من لا يرونه أهلا لحمل هذه الأمانة، حين انفكت هذه الناشئة عن كل هذه الأنساق، وهذه البُنى، التي كان ينتقل عبرها العلم جيلا بعد جيل، من أجيال هذه الأمة المباركة، حصل

وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وأخرج في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ [من سورة سبأ]، حديث رقم:4800. قوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ».

وأخرج في كتاب الأدب، باب قول الرجل للشيء: ليس بشيء، وهو ينوي أنه ليس بحق، من حديث عائشة رضي الله عنها، قوله صلى الله عليه وسلم: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»، حديث رقم:6213.

ادّعاء امتلاك الحقيقة، فأصبح كالسّوط أو المِقْرَعَة، التي تُقرع بها رؤوس الذين ليس لهم العلم الكافي، ولا الضافي، لاستبانة هذه الشبهات وهذه المقولات الفتنوية، فيكون الاتباع لهؤلاء، ويكون التضييع لهذا الميراث المبارك النوراني الوضيء للأمة، ويكون كل ذلكم تحت ادّعاء الصفاء.

وهذا الحلم تم اجتياله أيضا من قبل المارقين، من أبناء وبنات الأمة، كما سماهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصبحوا وكما سلف، مستخدمين لهذه المقرعة أو لهذه المطرقة على رؤوس غيرهم، والذين لا يكونون مستروحين للتأطير الكافي والوظيفي، يمكن أن يتم اختطافهم واجتيالهم، لاتّباع مثل هذه الشبهات، ومثل هذه الدعاوى.

بطبيعة الحال وكما سبقت إليه الإشارة، كان من الأسباب الكامنة وراء ذلك، هو ضعف المؤسسات العريقة في الأمة، أي المؤسسات التي كانت حامية للممارسات الاستنباطية، ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾[3] أي هؤلاء القادرين والقادرات على الاستنباط، كما يُنْبط الماء من البئر الشطون، أي آليات هذا الاستخلاص للأحكام من مظانها، حين تآكلت هذه المؤسسات القادرة على الاستنباط بتنسيق مع مؤسسات ولاية الأمر، كان هذا التسرب، ولاسيما ابتداء من المنتصف الثاني من القرن الماضي، القرن العشرين، حيث دخلت مشارب أخرى، اشتراكية أو يسارية أو قومية، أو غير ذلك من المشارب، التي كان لها تأثيرها البارز والواضح في إظهار المؤسسة العريقة، وكان ذلكم بمثابة التَنَمُّرات على هذه المؤسسة، وهو الذي جعل التُرْعَة والثُغْرَة تنفتح لكي يتسرب هؤلاء بكل هذه المقولات الفتنوية، مما أدى إلى ما بتنا نشهده.

هذا يسلزم ضرورة إعادة تقوية بناء، وطبعا بِرُشْد، هذه المؤسسات العريقة، لكي تعود للاضطلاع بدورها المؤطر والحامي للممارسة التديّنية في المنطقة.

ولنا عودة لهذا الحديث، إن شاء الله، في لقائنا المقبل، بإذنه تعالى، وإلى ذلكم الحين أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

3. سورة النساء، من الآية:82.